المجلة العراقية للبحوث الإنسانية والإجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 - Electronic ISSN 2790-1254
العدد11A 2023 كانون الاول
No. 11A December 2023

المستوى النفسي في روايات غادة السمان

أ.م.د أحمد عبدالله خلف
كلية التربية للبنات/ كركوك / قسم اللغة العربية

الملخص

تناولنا في هذه الدراسة تجليات المستوى النفسي في روايات غادة السمان، حيث تم أولاً الحديث عن المفاهيم التي تقوم عليها هذه الدراسة، وهي مفهوم الرواية ومفهوم المستوى النفسي ، وبعد ذلك تم التكلم على الأبعاد النفسية في روايات غادة السمان ، وتجلى ذلك في الاغتراب ، والحنين ، وصراع الذات.
وتمتاز الكاتبة غادة السمان بتنوع أساليبها في الرواية ومنها الأسلوب الساخر بما يملك من قدرة على التأثير، والأسلوب الدرامي الذي يلخص مشاهد الواقع بلوحات حركية، والأسلوب الحواري الذي يكشف أعماق الشخصيات ويعطي النص حيوية وديناميكية. ولكل عمل روائي لون سردي خاص به، لكن لدى الكاتبة غادة السمان نجد السرد بأنواعه ، والحوار المتعدد الأطراف، والوصف المتين.

الكلمات المفتاحية : الرواية، الاغتراب، الحنين.

the manifestations of the psychological level in Ghada AL-Samman

A. P. Dr. Ahmed Abdullah Kalaf

Research summary

In this study we discussed the manifestations of the psychological level in Ghada AL-Samman,s novels, where we first talked about the concepts on which this study is based , which are the concept of the novel and the concept of the psychological level, and after that we talked about psychological dimensions in Ghada AL-Samman,s novels, and this was manifested in alienation , nostalgia, and self-conflict.The writer Ghada AL-samman is distinguished by the diversity of her method in the novel, including the satirical style, which has the ability to influence , the dramatic style , which summarizes the scenes of reality with kinetic paintings , and the dialogic style , which reveals the depths of the characters and gives the text vitality and dynamism. Every work of fiction has its own narrative color but, but in the writer Ghada AL-Samman we find all kinds of narration , multi-sided dialogue , and solid description.
Keywords: novel, alienation, nostalgia.

المقدمة:

الرواية حياة مصغّرة عن وجودٍ معيشٍ، إنّها موجودة في كلّ زاوية من زوايا وجودنا، متنوّعة تنوّع اختلافات حَيَواتنا؛ إذ أتاحت إمكانيّة للتّكثيف والتّخييل والإسقاط الواقعيّ، وإعادة النّظر في عناصر الوجود الإنسانيّ، فأصبحت الروايات حاملة هموم الإنسان المعاصر، وعَبَقَ تاريخه في الماضي، وأفق تطلّعاته المستقبليّة. تُعدُّ الرواية خير ممثلٍ لحياة الإنسان، إذ تختزل ثقافته وتجاربه المختلفة. بكلّ لحظات تجلّي مواقف الحياة وما تتركه من معارف ومعلومات وخبرات، وتُعدُّ الرواية ميداناً يوسّع أفق الإنسان، وطريقة فهمه للأشياء، لكنّ الروائي يلجأ إلى تعميق نظرة المتلقي الثاقبة، ويوجهها، ويعمق تلك الرؤى التي يكوّنها العقل، مساعداً المتلقي على التعرف على العالم من حوله، والعالم من قَبله، على نطاق أكبر وأشمل، مع أنّ الإنسان العربي اعتاد القراءة ومارسها، وأبدع في كتابة النظم والنثر، فنراه يتكئ على

ثقافته محاولاً توظيفها للوصول إلى خلاصة لها قيّمة وجدانية وإنسانية معاً، والإنسان حين يريد إيصال معلومة ما أو فكرة معينة، يلجأ إلى السرد والحوار غالباً.

تحمل الرواية عند غادة السمان رؤية تدخل أفق الانفتاح الرؤيوي المستبطن جذور الواقع والمعارف والخبرات، وتجمل في كثير منها استشرافاً وجودياً، فالروائي حين يكون جمالي الإبداع يمتلك رؤيوية قادرة على استيراد زوايا جديدة في النص الروائي الجمالي.

هدف الدراسة:

هدفت هذه الدراسة إلى رصد الأبعاد النفسية في روايات غادة السمان لاستنطاق الإبداع الروائي السوري من جهة، وكشف الأبعاد النفسية لدى الأديبة العربية ضمن المعطى الموضوعي من جهة أخرى.

الدراسات السابقة.

هناك العديد من الدراسات التي تناولت الرواية عند غادة السمان ، ومن تلك الدراسات :

- الأنا والآخر في خطاب الرحلة عند غادة السمان، (أطروحة دكتوراه) حياة دقي، جامعة الجزائر، 2020.

تحدثت فيه الباحثة عن خصوصية الخطاب الرحلي عند غادة السمان وما هي محددات الذات والآخر في خطاب الرحلة وكيف تجلت سردياً.

- بنية الخطاب الروائي عند غادة السمان، (أطروحة دكتوراه) ، زهيرة بنيني، جامعة العقيد الحاج لخضر _باتنة_ الجزائر ، 2008.

حاولت فيه الباحثة اتباع المقاربة البنيوية منهجاً في تحليل الخطاب الروائي عند غادة السمان ، وبحثت عن أسرار هذا الخطاب وفك طلاسمه واستكناه عناصره الأكثر تأثيراً من خلال بنياته المختلفة .

منهج الدراسة

التزمنا في هذا البحث بالمنهج الوصفي التحليلي الذي أسعفنا في الوقوف على التجليات السردية والأبعاد النفسية في روايات غادة السمان وإبراز جمالياتها والتعليق عليها .

المبحث الأول: غادة السمان والرواية العربية.

المطلب الأول : التعريف بالكاتبة غادة السمان :

ولدت غادة أحمد السمان عام 1942 في دمشق، درست الأدرب الإنكليزي في الجامعة السورية، وتخرجت عام 1963، بعدها درست المسرح اللامعقول بالجامعة الأميركية ببيروت ونالت شهادة الماجستير ثم حصلت في القاهرة على شهادة الدكتوراه، عملت في التعليم والصحافة معاً .1

وأسست غادة السمان دار نشر خاصة بكتبها. وكان لها لغتها الساحرة فقد كانت كاتبة شاملة لأنها تحررت من الأنواع الأدبية ، وأصدرت كتابها الروائي الأول (عيناك قدري) تلاه (لا بحر في بيروت) عام 1965، أما روايتها الأولى (بيروت 75) فقد صدرت عام 1975 . بعدها أصدرت خمس روايات. وفي مجال الشعر أصدرت تسعة كتب شعرية، كان أولها (حب) وقد صدر عام 1973، وفي أدب الرحلات أصدرت خمسة كتب منها (الجسد حقيبة سفر) و (رعشة الحرية) وفي مجال الكتابة الحرة أصدرت حوالي عشرين كتاباً منها (صفارة إنذار داخل رأسي) و(القبيلة تستجوب القتيلة) و(الحب من الوريد إلى الوريد).

وهي من الكاتبات العربيات المهتمات بمعرفة الذات والسعي إلى مكاشفتها مكاشفة حضارية وثقافية عميقة. اقتربت في كتاباتها من الآخر، فعرته كما عرت ذاتها والذات العربية والإسلامية ككل، إذ انطلقت في علاقتها مع الآخر من مرآة أدبية متوحدة تكشف عن بطانة ثقافية وفنية عميقة لدى الكاتبة التي لم تنظر من مرآة فردية إلا بمقدار ما تتمتع به من عمق الثقافة والخصوصية التعبيرية والأسلوبية، والدقة في ملاحظة أصغر التفاصيل وأخفاها وأصعبها. فطرحت غادة السمان في معظم أعمالها سواء الروائية منها أم الروائية، وفي أدب الرحلة أيضاً عدة قضايا وإشكالات تنم عن وعي إنساني حضاري مشفوع بصبغة فنية وسردية زين أعمالها الإبداعية متمثلة تيار الوعي والحوار، فتعدت زوايا السرد في أعمالها وتماهت الحدود التي تفصل بين الواقعي والخيالي في القص، وباعتبار أدب الرحلة الجنس الأدبي الأكثر تفعيلاً للذاتية، تنطلق الكاتبة في جميع مدوناتها الرحلية من علاقة الأنا بالآخر، فنجدها تنطلق من الذات لمعرفة الآخر كما تنطلق من تعرية الآخر والاقتراب منه قصد فهم الذات، دون أن تقع في فخي الانبهار والاحتقار، وهذه الكاتبة تدعو للحرية وتنشد الإنسانية باستمرار من خلال ما تثيره من تساؤلات وطروحات .

المطلب الثاني: التعريف بالرواية.

يشكل النص الروائي كتلة من المؤثرات الجمالية في خطاب إبداعي له مثيراته التكوينية المشبعة بالمتغيرات المشهدية، فالجمالية في الرواية حيّز إيقاعي نفسي، والروائي ملهم فنياً وجمالياً بتحقيقه المباغتات الحديثة ومثيراتها الخلّاقة؛ إذ إن القيمة الجمالية في الرواية ليست للكلمات في ذاتها بل لشعرية تركيبها، وعمق استثارتها.

لقد قدّمت الرواية تجارب عديدة، وأعلنت رسالتها في كلّ تجربة سرديّة يبدعها راوٍ أجاد الاعتناء ببناء روايته اللّغويّ والدّلاليّ؛ إذ لا يمكننا إغفال ما تمّ إنجازه في ميدان الرواية، وما قدّمته من جماليّات أغنت أدبنا وفكرنا.

والرواية هي" عرض لحدث أو سلسلة من الأحداث الواقعة ، واقعية أم خيالية بواسطة اللغة"2. فالرواية مجموعة من الأحداث والوقائع المعبرة عن واقع الفرد والمجتمع؛ إذ تتناول تلك الروايات فكرة رئيسة تحمل المغزى في شكل أدبي مميز، فالأدب له فاعلياته الاستراتيجية، ودوائره التي تعكس مهارة التجسيد لغوياً، وإطلاق بؤر التخييل لدى المبدع في حركة منفتحة على الآخر الذي يشكل متلقياً– من المفروض أن يكون واعياً- يستقبل الرسالة الموجهة إليه ويحولها إلى خطاب آخر مشبع بعمق قرائي؛ ما يجعل المتلقي ذا مكانة بارزة في عالم الرواية العربية وغير العربية؛ إذ يعد حلقة ضرورية لإكمال الخطاب، فلا خطاب دون مُخاطَب، ولا فائدة من الخطاب دون مخاطَب واعٍ، وهذا يعطي العملَ الروائي قوة ومكانة.

وتعرف الرواية أيضاً أنها "فن مستقل له خصوصيته وذاتيته، إذ هو فن يتسع لدراسة العلاقات المتشابكة والمتشابهة داخل المجتمع ، فيفرز لنا النماذج البشرية"3.

المبحث الثاني: تجليات المستوى النفسي في روايات غادة السمان

المطلب الأول : الصراع في روايات غادة السمان:

ينحصر البعد النفسي في الروايات العربية في الشخصيات الروائية سواء من حيث شكلها الخارجي أو علاقاتها ببعضها بعض أو طبيعتها (نمطية، ثانوية، نامية، رئيسية) ولكن يمكن أن تدرج عناصر أخرى تجسد البعد النفسي في الرواية كالعنوان الرئيسي والعناوين الداخلية وكذلك الصورة والألوان التي تحويها.

لا يمكن أن تكتب رواية وتؤسس شخصيات من دون أن يكون البعد النفسي حاضراً فيها،

يعد الصراع بكل مظاهره أكثر العناصر التي تسعى الرواية إلى تجسيدها، كونه أساسياً وضرورياً في بناء الرواية، لأنه يبعث الحياة بين الشخصيات وكلما اختلفت الشخصيات في أنماطها زاد الصراع بينها وأكثر

صور الصراع تجلياً في روايات غادة السمان: الصراع بين الذكورة والأنوثة أو سلطة الذكورة في مجتمع الأنوثة.

تقول: "أنا حين أرحل أحب الانفراد بصوت قلبي وقلمي ولا أحد في الدنيا يعرف مكاني" 4

إنه ذاك الرابط القوي بين الشخصية ونفسها، إذ يظهر صراعها النفسي الحاد،لإخراج ما في داخلها من مشاعر، رغبةً في الانعتاق بالبوح، وربما لذلك نجد أن الصراع الذي تحاول تجسيده يعكس إشكالية شخصياتها، ودورها المؤثر في أحداث الرواية، فحوار الشخصية مع ذاتها، أو تشخيص صوت الذات شخصية ثانية يبيّن بعدها الفكري، ومنابعها التكوينية نفسياً واجتماعياً، فالشخصية تقنية سردية تقوم عليها الرواية، ولا قصّة من دون شخصيات، فهي تعطي الحكاية بعدها الحكائي.

يستقي الروائي مادته من مخزونه الثقافي الذي تفتّقه ذاكرته، فنجده يحوم في فضاءات تلك الثقافة جاعلاً إياها فضاءً إبداعياً بوساطة تضمين تلك الثقافة في نصوصه الإبداعية، الأمر الذي يجعلنا أمام وظائف جمالية تجعل للكلام الروائي شعرية، والوظائف الجمالية لتضمين الثقافة في إبداع غادة السمان.

وتحاول الكاتبة أن تبدو بمظهر ما يجب أن يكون عليه الإنسان المثقف الواعي ، تقول" أليس الكاتب هو المريض والطبيب النفساني الذي يشخص المرض في آن؟"5

فهي تعمد إلى تقمص دور الطبيب النفساني الذي يشخص المرض وهي التي تقرر مراراً أن الكاتب إنسان مريض بطريقة ما، ويمكن أن نعتبر هذا التأويل من الكاتبة اعترافاً ونقداً لذاتها.

لقد بدا أمامنا المشهد مسرحية مصغرة عن الحياة المليئة بالاستنكار والشكوى وهذا ما أعطى روايات غادة السمان بعداً درامياً؛ إذ حوت قصصه طابعاً درامياً نتيجة لعلاقة التأثر والتأثير بين حوامل الفكر والواقع، ومحاولته تقديم الصراع وتجسيد الأحداث في تصوير مبدع، ويشكّل الصراع أساس الدراما، وقد تجلى الصراع في مجموعات الروائي في مواقف قصصية كثيرة،

وهذا الصراع يشكّل محوراً رئيساً من محاور الدراما في هذه الرواية، لأنه يعطي الرواية حركة وحيوية.

إن الكاتبة مفعمّة بالحساسية التي جعلتها تستحضر من الذات شخصاً تقيم معه حديثاً، تلك الحساسية التي ينظر إليها، في أغلب الأحيان، على أنها انفعال سليم لا يقف أبداً من تلقاء ذاته، بل إن عنصراً ناجماً من آلية الشكل الانفعالي الذي كشف عنها تفاعل الشخصية مع ذاتها، ويقودنا شيئاً فشيئاً إلى الخيط الذي يربط العملية الإبداعية الذاتية بالذات، وهو الذي يقطع تلك العملية في الوقت نفسه؛ ولذلك يمكننا القول: إن العملية الإبداعية ليست هي نفسها التي تقف أو تنقطع بوساطة حديث الشخصية مع نفسها، لأن العملية تحدث في حدثٍ متعلق بالأساس الحي، فهنالك تعبئة شحنة جديدة لم تتم، والخلاصة أن هذا الإحساس يختفي شيئاً فشيئاً**6.**

تروي لنا الكاتبة مشهداً يعكس حالة نفسية كانت تعيشها فتقول" في الطائرة راقبت الراكبة التي تحمل معها مجلة الحوادث الجالسة في الصف المقابل ، كنت أريد أن أرى مفعول زاويتي فيها "لحظة حرية" على وجهها وهي تطالعها، وهل ستصفق إعجاباً أم تكتفي بقراءتها مرات بصمت! والطاووس في أعماقي ينفش ريشه متلهفاً . فتحت الراكبة المجلة على صفحات المجتمع ، وأمعنت فيها قراءة وتفرساً في الصور وهي في غاية الحبور، حين قلبت الصفحات الأخيرة أخيراً على " لحظة حرية" قرأت سطراً أو سطرين من زاويتي الأسبوعية ثم راحت في نوم عميق، وسمعت شخيرها الهانئ! وسقط غروري من الطائرة بلا مظلة من ارتفاع 30 ألف قدم ، فقد كان شخيرها أقسى" نقد أدبي" سمعته في حياتي!"7

لن يخفى على القارئ بتأنٍ والباحث بعمق تميز الكاتبة بتنوع أساليبه في القص وقدرته على التحكم بخيوط تلك الأساليب والسيطرة على حركتها ، ومنها الأسلوب الساخر بما يملك من قدرة على التأثير، والأسلوب الدرامي الذي يلخص مشاهد الواقع بلوحات قصصية حركية.

فقد عبرت الكاتبة عن خيبة الأمل والإحباط الذي أصابها ولكنها على الرغم من ذلك استقبلت ردة الفعل تلك برحابة صدر. يمكننا القول: إن لشخصيات الرواية أثرها وسماتها التي لن يصل إليها القارئ إلا إذا أمتلك ثقافة وكفاءات لغوية ونقدية وبلاغية ونحوية، لأن فضاء الرواية غير ممتد قياساً إلى فضاء الراوي الذي " سمح للشخصية بأن تكشف عن نفسها بوضوح، ويستطيع الراوي أن يتابع تطورها ويدخل في أعماقها وخفايا نفسها، ويكشف عن مواطن ضعفها وقوتها "8، لكن، في الوقت ذاته، يبقى لفضاء الرواية خصوصية في نفس القارئ؛لأنه يهبهُ متعة الكشف من جهة، ويحثهُ إلى الولوج في شعرية الأحداث وثرائها مع قصر المساحة الغنائية من جهة أخرى.

لقد أبرزت هذه السخرية الجانب الشعوري الذاتي للكاتبة، وهو الجانب المتأزم في طيات ذاتها التي أرهقتها مصاعب الحياة، فاتخذت من سخريتها وسيلة توضيحية لجانبٍ أسود في المجتمع؛ لتسلط عليه الاهتمام، سعياً لدرء خطر ذاك الجانب، فنراها تتفاعل مع القضايا الاجتماعية بأسلوب ينطوي تحته الإحساس برغبتها في التغيير . وتحاول الكاتبة أن تكمل نقص المشهد المأزوم أو تغطية العيب بتجميله أسلوبياً؛ إذ شكّلت السخرية حاملاً فنياً هدف إلى التعويض، وكانت تلك السخرية الأدبية نوعاً من أنواع الإبداع الفني الذي تناول المجتمع وقضاياه، وصور اللامبالاة، فكان سلاحها الذي استعانت به لتوصيل هموم المجتمع وآلامه إلى القارئ، نظراً للمتعة التي تضفيها السخرية عند تلقي النّص، أضف إلى ذلك ما تعطي النّص من جمالية أدبية لا تعدّ هدفاً بذاتها، بل هي إحساس تستجمعه ذات القارئ في بيئة النص الإبداعي.

المطلب الثاني: تجلي شعور الاغتراب و الحنين في روايات غادة السمان

انصب اهتمام الكاتبة غادة السمان على الحفر في الذاتي والنفسي والجوانب المظلمة لواقع حياة الشخوص. وقد تجلى الاغتراب والحنين في رواياتها التي تخص أدب الرحلات، ويرتبط الرحيل عند غادة السمان دوماً بالسكون والفرار نحو عالم خاص خال من الضجة والصخب، فغادة الرحالة ترتحل وتلتقط فتكتب وتسجل كل تفصيل، هي عندما ترحل تفر منها إليها،

ولما سئلت عن موقفها من الانعزال عن الأشياء والموجودات أجابت "أنا أرحل عن الأشياء إن كان علي أن أغادر ذاتي كي ألتقيها... الانعزال عن الأشياء والموجودات أمر رائع ما دام يتضمن موقفاً إيجابياً أو سلبياً . بعبارة أخرى ما دام نتيجة ، ردة فعل تجاذب أو تنافر، فإنه في هذه الحالة دليل حياة... أما العزلة الكاملة ذات السكينة اللا مبالية، فأمر يصعب تصوره، إنه الموت الحقيقي، إنه شيء غير مألوف"9

والرواية تخاطب الطبيعة البشرية وحاجاتها، وتساير النمو البشري والتطور الفكري والرغبة في تجاوز آفاق الإخفاق المعيش في محطات كثيرة من حياة الإنسان، وتخلصه من العزلة والشعور بالحاجة والوحدة، فهي تشبع وعيه وتنمي رؤيته، وتجعله يعيش تواصلاً فاعلاً مع الإبداع من جهة، ومع مؤثرات حضارية كثيرة من جهة أخرى.

يعبّر المبدع كبقية الناس، لكنّ رؤيته تختلف كثيراً، لأنها تتخطى ظواهر الأشياء، وتغوص في أعماقها؛ وبذلك يتجاوز تعبير المبدع اليقين والتطابق إلى الإيحاء والرمز والإشارة10 فيصبح شخصية متفاعلة بطريقة مرنة مع ذاته وهذا الأمر أفادت منه الكاتبة في بناء رواياتها ؛ إذ " يمكن تحديد الذخيرة في جميع السياقات التي يمتصها النّص ويجمعها ويخزنها في ذاكرته، إما في هيئة نتاجات سابقة تتجه صوب التعبير[...]، وإما في صورة معايير وقواعد تتجه صوب المضمون "11.

تختصر لنا غادة السمان شعورها بقولها " يبدأ الرحيل بالحلم، مروراً بالكابوس، وينتهي بمزيد من الالتصاق بتربة الواقع، ويبدو أن علينا شراء بطاقة سفر لذاكرتنا أولاً ، وإلا ما جدوى الرحيل ما دام كل ما يقطننا يرحل معنا ، هواجسنا تقود الطائرة، أحزاننا تلعب دور المضيفات، السيد الكآبة هو رفيق المقعد.... والتوتر المتحفز القلق هو أرض المطارات كلها"12.

كل ذلك يعكس حالة التشتت والضياع والاغتراب التي تعانيها الكاتبة، إنّ الضمير العربي متوارث عبر الأجيال، وتجارب الإنسان العربي واحدة لا تنفصم عراها، والكاتبة غادة السمان تقدّم جانباً تواصلياً مليئاً بعبق الإنسانية، جاعلة منها رواية حية تنمو في مراحل، يسافر المتلقي معها إلى الأزمان كلها، والمراحل البشرية كلها.

تحمل كل رواية رسالة معينة، يرسلها مرسل إلى مرسل إليه فيتشكل فعلٌ إخباري وهذا الفعل الإخباري حلقة تواصل تربط بين زمن ما بزمن لاحق ليقدم مستوى شعورياً يوجز تجربة ما وعلى المبدع خاصّة أن يستثمر اللحظات الإبداعية وفق رؤية جمالية تتجلى بإبراز اللحظات الشعورية وتحميلها خبرات وجدانية ومعرفية تنتقل من زمن إلى آخر. لقد أدى غياب التواصل الاجتماعي الفعلي إلى انفعال وجداني متفاوت بين مجتمع وآخر وأتت الرواية لتؤدي فائدة تأثيرية إبداعية إنسانية تصل الإنسان بالإنسان. ولن يكتمل بناء الشخصيّة إلا بامتلاك المبدع القدرة الحقيقية على الابتكار والخلق والفهم الكامل لعالم تلك الشخصيّة، والقدرة على تجلية صفاتها مشكلاً ميداناً رحباً لتحركاتها في البناء النّصي مبتعداً عن إقحام ذاته، متجنباً لي عنقها، لتقديمها من دون الظهور بمظهر المتحكّم المسيطر عليها.

وتقول في رواية امرأة على قوس قزح معبرة عن مدى حنينها إلى وطنها : "ما من عربي تقريباً إلا راوده حلم الرحيل في فترة ما من حياته، ولكن الذين رحلوا طويلاً مثلي يكتشفون مزايا الالتصاق بالوطن. وأنا شخصياً عشت حرب بيروت عشرة أعوام ، لكنني أخاف ليلاً في واشنطن ونيويورك وأخواتها أكثر مما خفت هناك (أو بدرجة مشابهة!)13

لقد سعى الروائي عموماً إلى التأمل والتفكير مطولاً في الواقع الذي يعيش فيه المواطن العربي بأحداثه، وما يكتنفه من وقائع مؤسفة، فلجأ إلى إبراز التفاوت بطريقة ساخرة للتخفيف من حدة آلامه.

لا توجد رواية لا تُعَبّر عن موقف أو تجربة أو أية سمة اجتماعية في المجتمع، فتعبّر بشكل مفصّل عما يدور حولنا، بطريقة مباشرة، أو ربما بطريقة غير مباشرة، لكنّ غادة السمان وّظفتها بعيداً عن الإسفاف أو الركاكة، بل جعلتها في نسيجها الروائي لحمة شعورية فكرية معاً.

تبدو الشخصية حبيسة نفسها، تعيش مخاوفها، وتمردها معاً، إنه صراع النفس في لحظات العجز، صراع الذات في لحظة عدم القدرة على تحقيق الحلم، مع محاولة تلك الشخصية أن تخلص لنفسها مع الصراع الذي اكتنفها، في محاولة المحافظة على خط سير علاقتها بنفسها.

ونلاحظ التذبذب في رأي الكاتبة ، فطوراً تعتز بعروبتها وبوطنها وتفرط في ذلك الاعتزاز وطوراً تتذمر من الأوضاع التي تعانيها في ذلك الوطن . إنه حوار الذات مع الذات، ، كأنها تفكر وحدها لكن بصوت عال.

ينفتح أفق المغامرة الجمالية في الرواية، لتلبي حاجات التطورات النفسية والموضوعية التي ترصدها الكاتبة في شخصياتها الرئيسة والفرعية لكشف المخبوء، وترفض سلطة النموذج، وهذا يشكّل تفتيقاً لمضمر الجماليات النصية الروائية لا إلى واقعها فحسب، بل إلى نسقها الإبداعي،

ترحل غادة إلى المدن إليها وتنصرف هي إلى الارتحال الذاتي، يدفعها فضول التعرف مدفوعة بشهوة الدهشة والهرب من الذات ، ومحنة الانتماء، لكن هويتها القومية ترحل معها في حقيبتها، وتنغص عليها متعة الرحيل أينما حلت، لأن للمدن هويتها، هويتها الإنسانية والقومية وتطلعاته الحضارية، هذه الهوية التي تصر على إبرازها عندما يتعلق الأمر بالمدن العربية حيث تشعر بالانتماء وكأنها لم تسافر ولم تغادر من بلد لآخر تقول" حين أرحل إلى أية مدينة عربية أشعر أنني أعود إلى دمشق بمعنى ما أو إلى بيروت، وأن ما أعرفه هو أكثر مما أجهله، فأنا بنت هذه الأرض وفي هذه التربة كبرت وحضورها في ذاتي أكيد كحضور خصائص البحر في قطرة ماء من موجة"14

"إنني أحاول أن أرى عالماً يختلف عني، ولا أراه من موقع دوني، بل من موقع الند لاعتزازي الدائم بتربتي الحضارية... إنها شهوة الأجنحة والمعرفة التي انتقلت إلى من أسلافي الحقيقيين والوهميين أمثال ابن بطوطة والسندباد ، وشعاري: ما لا يشبهني يجعلني أكثر غنى ويزيد في ثرائي الروحي ولي دائماً حرية قبوله أو رفضه"15

نجد البعد الفكري كاشفاً عن اعتقادات الشخصية ويكشف حالتها الذهنية، وردود أفعالها، بل يوّضح الدوافع التي تجعل الشخصية تقوم بفعل ما. فالكاتبة عندما ترحل تبصر ذاتها ووطنها جيداً ، وهي حرة فقد تزداد انتماء للأشياء الجميلة فيه بينما تصرخ رافضة لجانبه السيئ والمر.

وبذلك ظهر الاغتراب موضوعاً محورياً فهو اغتراب ذاتي ، وبدأت الفكرة بعدم الانتماء إلى المجتمع ، فالفرد يغرب نفسه عن طبيعته الجوهرية بما يدفع به في بعض الحالات أن يصل إلى التطرف في التنافر مع ذاته.

ولأن حياة الإنسان حافة بالتجارب فقد يعايش ذاته باعتباره غريباً عنها وعن العوالم التي تحيط وجوده وكينونته.

وأمام الوظيفتين الانفعالية والجمالية نجد محاولة الكاتبة تفسير حالة انفعاله وتعليلها، فوضعتنا أمام وظيفة تفسيرية شكّلت دليلاً يؤكد الحالة المزرية التي تعيشها.

وأمام هذه الجماليات يبدو الوصف إشعاعاً دلالياً إبداعياً معاً، إنه القدرة التصويرية التي تترك القارئ في جو الأحداث، يعيش فيها ومعها مراحل إبداعية مميزة.

"أقرر أن أهرب إلى عالم آخر ... إلى أي مكان أرفع فيه كابلات دماغي ، وأغلق أدراج الذاكرة ومثل ملاح طموح متعب أرمي بمرساتي لأنام استعداداً لرحيل أطول ... أين أهرب إلى غير أعماق البحر؟ أهجر عالمنا الأرضي وأمضي إلى عالم تحت الماء المسحور؟"16

وهذا البعد النفسي أظهر الكاتبة متألمة وواثقة معاً؛ إذ نجد الصراع في عمق الشخصية بين المعاناة والغنى الفكري، حين وصفت مشاعرها وأحاسيسها في مواقف عدة مبينة قدرتها على اتخاذ القرارات المناسبة.

لقد أغنت الكاتبة نصّها بالجمالية الفنية موظفة تلك الجمالية في إحداث أثر جمالي، والرغبة الحثيثة في تغيير الواقع الراهن، ونبذ القصور والشح والحاجة، ومحاولة توفير جو من المتعة النفسية والراحة، فنحصل على الإبداع والمتعة في الوقت ذاته.

تكتظ الرواية بالمخزون الاجتماعي فنرى في كثير من الأحيان عرض الشخصية تفاصيلها الاجتماعية، وتحفل الشخصية بالتناقضات في مشاهد عديدة تبنى عليها الحياة وتكنز في الوقت ذاته إيحاءات ثقافية، واللغة الشعرية تنسجم مع الذات، وتستنطق المشاعر الداخلية، وتجعلنا أمام عبور إلى داخل المؤلف، والداخل الإنساني معاً، فحديث المؤلفة عن نفسها لم يكن إلا عرضاً لفاعلية الإنسان في الفقد، وقد يمنح المؤلف الشخصيات حرية التعبير عن نفسها بضمير المتكلم

وتستمر معاناة الرحيل مع ظلمة الليل ووحشة الغربة في رحلة غادة التي تخاطب الجماد في الليل ، وهذا خير تعبير على شعور الضياع الذي تعانيه إذ تقول:

"ليل العالم الديناصوري .. ليل عالمك الداخلي الحائر بين السادية والماسوكية.. ليل إشارات الاستفهام التي تتربص بك الدوائر، والمربعات والمستطيلات، ومثلثات الحيرة بزواياها الحادة"17.

نستطيع أن نلتمس الضياع والاغتراب الذي تعيشه الكاتبة، وقد سئلت عن أسباب حبها للسفر فلم تجد إلا الاعتراف بالوجع الدائم ، إلا أن السفر يضيف على وجع القلب متعة الاكتشاف والتشرد ، وفي ذلك

تصعيد نفسي وبديل تعويضي يسمح بمواجهة أعماق الذات والبحث عن هوية حقيقية لها وعن بعض السلام.

تحاول الكاتبة أن نقل الأحداث من صورتها الواقعية إلى صورتها اللغوية، وهذا الواقع ليس واقعاً موضوعياً دائما، بل نجده واقعاً متخيلاً يعكس صراع الذات وما يجري على المستوى الانفعالي من اضطرابات. تبدو جماليات أسلوب الوصف لدى غادة السمان واضحة حين نقف على واقعية صادقة في رواياتها؛ إذ إنها تفاصيل تكشف عن إحاطة الكاتب بعمله الفني إحاطة فنية حقيقية معاً، وكل فن ينأى عن الحقيقة يكون ميدان وهمٍ لا جدوى منه.

فالرواية كتابةٌ وكلمات ورسومٌ موقفية و" يبدو أنه لا توجد لغة من دون صوت أو حركة أو رسم(كتابة)، وهناك علاقة جد وطيدة بين القوانين التي تحكم المجموعات اللسانية الصوتيّة والنحويّة والأسلوبيّة والسيميائيّة، وتعكس هذه القوانين العلاقات الموضوعية بين الموضوع المتحدث عنه والحقيقة الخارجية، فالرموز الكتابية هي أشياء يمكن بفضلها أن نعبّر عن علاقات الموضوعات المتبادلة، لكنّها أشياء تناولها أيسر من تناول الموضوعات نفسها"18، هناك علاقات بين الكلمات ولا قيمة للكلمة بمفردها بعيداً عن العلاقات التي تجمع بينها، وهذا الرابط العلائقي حمل بعداً خاصاً،

وإبراز وضع الشخصية اجتماعياً يجعل من النص مساحة أكثر واقعية لأن المجتمع الذي اختاره الروائي هو المجتمع العربي ذاته، فكلّ تفصيل اجتماعي كان جزءاً من تفاصيل الحياة العربية، وهذا سر جمالية وصفه.

وتعيش الكاتبة لحظات ألمها إذ لا ضير في ذلك مادام العقل فيها صحواً يسعى للخروج بالروح من بوتقة الظلام إلى ساحة النور ، ومن دائرة الحيرة والخيبة إلى فضاء الخطط المجدية والعمل المثمر. تقول:

" آه الرحيل موجع وشهي. يتأمل الإنسان في أحوال الأمم الأخرى ، فيزداد وعياً بحاله وجرحه، وعمق هذا الجرح وقطره وتاريخه، وموقعه من هذا العالم اللامبالي"19

نجد الكاتبة متعبة، والتعب يسبب " نقصان الحساسية تجاه الشيء نفسه الذي كان في بادئ الأمر يوّلد لذة أو رغبة. ومن الحري أن نبحث عن التنوع أو أن نخلقه لكي يعيد الحياة إلى حساسيتنا، فالتنوع يطلب إذاً على أنه مكمّل لديمومة إحساسنا التي استمرت طويلاً "20، لم يكن الوصف عشوائياً، فهو إجراء أسلوبي يسعى إلى تماسك النسيج اللغوي وتبيان صفات الموصوف، عبر نص أدبي نهضت اللغة فيه بوظيفة جمالية تلاشى معها كل شيء خارج حدود هذه اللغة.
عمدت من خلال تصويرها إلى الألفاظ المعبّرة، فكانت لغته سلسة، معبّرة، فاللّغة في الرواية "لا تنهض فقط بعبء التّعبير والتّصوير، لكنّها ذات دور بالغ ودقيق في إضفاء الحرارة والحيويّة على العمل الأدبي، كما أنّها تلقي بظلالها وتأثيرها على بقيّة العناصر، فالبناء أساسه لغوي، والتّصوير المكثّف للشّخصيّة والحدث يتّكئ على اللّغة، والدّرامية في الرواية القصيرة تولّدها اللّغة الموحية والمرهفة، فضلاً عن قدرة اللّغة على صياغة الأساليب الفنيّة، من حوار وسرد ومونولوج داخلي وغيرها "21.
لقد رصدت الكاتبة أحداث العصر ومشكلاته وصراعاته، ووجد نفسه أمام ألغام الحياة، فوجدت في رواياتها ميداناً لإبراز انفعاله مما يُدْهش المرء في حياة مليئة بالتناقضات، لكنها التناقضات التي عرضتها بأساليب عديدة أساسها الانزياح الدلالي.

" أرحل.. ربما لأثبت أن لا رحيل إلا لو رحلت عن ذاتي .. ولكنني في كل رحلة أمعن إبحاراً نحو حقيقتي! أرحل.. ربما بحثاً عن المجهول، والمدن الغارقة في غلالات المسافات والتاريخ، وربما لأن كل رحيل يقود إلى الوطن ما دام الوطن يسكننا .. كل الطائرات تهبط بي في أرض الوطن"22

يلاحظ المتأمّل في هذه الرواية ميلَ الكاتبة إلى استخدام أساليب السّرد التّقليديّة التي يغلب عليها الوصف الخارجيّ والمباشرة، والوقوف عند تسجيل الوقائع ووصف الأحداث، واستخدام صيغ الحوار المتنوّعة،

منها القوليّة، والاستفهام، والنّداء، والأمر. وقد لجأت إلى الخواطر والتّأمّلات، وأكثرت من الوصف، لأنّه" يتضمّن عادة انقطاع السّرد وتوقّفه لفترة من الزمن"23، وبذلك تمكّنت الكاتبة من إحاطة المتلقّي بكل ما يشدّه لاستقبال الرواية والاستمتاع بها. هذه الموضوعات غالباً ما تكون واقعيّة حدثت للكاتبة فتأثّرت بها، وهكذا يتوفّر لها الصّدق الواقعي الذي يكون باعثاً قويّاً للكاتبة في سبيل تجسيدها في رواياتها، من خلال صياغتها صياغة قصصيّة ،"وهذه الصّياغة الروائية توفّر تجسيداً لأفكاره ومشاعره، وأحاسيسه، قد لا توفّرها له الطّريقة الشّعريّة التّقليديّة، لأنّها قد تكون أضيق من أن تستوعب تلك الأفكار والأحاسيس والمشاعر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ الروائي يسعى إلى إشراك متلقّيه في هذا الانفعال العنيف الذي دفعه إلى هذه الصياغة الروائية، حين لا يجد ما هو أقدر منها على توفير جسور المشاركة المطلوبة "24.

تحتاج القراءة الواعية إلى الذكاء والفكر وإعمال العقل للوقوف على مضمرات الألوان التعبيرية كالسخرية التي انبثقت لدى الروائي ردَّ فعل عل ما أصاب الواقع العربي، فولّدت لديه تلك الغصّة إحساس الغضب والسخط، لكنّها، في الوقت ذاته، قدّمت للمقطع حوامل انفعالية أثارت القارئ، وجعلته مشاركاً فعالاً.

النتائج والتوصيات:

- مثلت الرواية عند غادة السمان مجموعة من الأحداث الدرامية التي عكست أحداثاً وجوديةً تكشفت أبعادها وفقاً لتقنيات عدة .
- بدأ تشخيصُ الذات لدى الروائية بثنائية وجودية أشبه ما يكون بميدانِ كشف صراعٍ داخليّ، نلمح هذا الصراع في أكثر من رواية.
- وجدنا في روايات غادة السمان مرات كثيرة الاستناد إلى تحطيم سياق النص الغائب، وتوظيفه بنائياً في سياق لا علاقة له بالنص الأساس.
- تُعدُّ الرواية ميداناً وسّع أفق الإنسان، وطريقة فهمه للأشياء، ولجأت الكاتبة إلى تعميق نظرة المتلقي الثاقبة، وتوجيهها، وتعميق تلك الرؤى التي يكوّنها العقل، مساعداً المتلقي على التعرف على العالم من حوله، والعالم من قَبله، على نطاق أكبر وأشمل.
- الإنسان العربي اعتاد القراءة ومارسها، وأبدع في كتابة النظم والنثر، والإنسان حين يريد إيصال معلومة ما أو فكرة معينة، يلجأ إلى السرد والحوار.
- استقت الكاتبة مادتها من مخزونها الثقافي الذي تفتّقه ذاكرتها، فقد حامت في فضاءات تلك الثقافة جاعلةً إياها فضاءً إبداعياً بوساطة تضمين تلك الثقافة في نصوصها الإبداعية، الأمر الذي جعلنا أمام وظائف جمالية جعلت للكلام الروائي شعرية.
- لقد تعددت أوجه المفارقة الساخرة بين الواقع وما يجب أن يكون، وحققت خصيصة الإقناع، وكانت سلاحاً للهجوم الساخر، وما زادها تعقيداً ارتباطها بكثير من أشكال التغير الفني، وتشكل مزيجاً من الرؤى والتبلورات النفسية والاستجابات الارتكازية حول معطيات الوجود المختلفة بما تحمل من مآسٍ وتطلعات.
- السخرية لدى الكاتبة كانت نوعاً من أنواع تكبير السلبيات وإلقاء الضوء عليها بهدف توظيف هذا الأمر في معالجة ما تراه من سلبيات.
- لقد شكّلت الدراما في أعمال غادة السمان حاملاً دلالياً حركياً تكوّن من مجموعة من المنجزات السياقية الفاعلة التي أبدعتها في هيئة فنية، فقد سيطرت البنى الدرامية في رواياتها حين جعلت مشاهدها مسرحاً مصغراً عن الحياة.
- امتازت غادة السمان بتمكنها من أدوات الوصف، فقد شكّلت الشخصية محور الحركة في الرواية ، فهي بأقوالها وأفعالها وطرائق تفكيرها تقود الرواية كلها، والمبدعة حاولت بوساطة الوصف الكشف عن

خبايا النص الروائي ومكونات الشخصية؛ إذ رسمت ملامحها الخارجية، وبيّنت علاقاتها المحورية ومجالاتها.

- تركز وصف الشخصية في روايات غادة السمان على أبعاد الشخصية المختلفة المتمثلة بالبعد الخارجي والبعد الداخلي الفكري، والبعد النفسي، والبعد الاجتماعي.
- شكّل السرد في الرواية حلقة وصل بين الجزئيات الروائية، فهو ينقل التجربة لنا مبرزاً الأبعاد الوجودية والنفسية معاً، ليضعنا أمام تصوير الشخصيات، وإضاءة معطيات واقعية، وكوّن السرد في أعمال غادة السمان تتابعاً مشهدياً، شكل في كل زاوية من زواياه عمقاً جمالياً للنص الروائي.
- لم يكن الوصف عشوائياً، فهو إجراء أسلوبي يسعى إلى تماسك النسيج اللغوي وتبيان صفات الموصوف، عبر نص أدبي نهضت اللغة فيه بوظيفة جمالية تلاشى معها كل شيء خارج حدود هذه اللغة.
- الانتقال بين الوصف والسرد يجعل القارئ أمام شاشة حياة مصغرة، شكّلت نسيجاً سردياً امتزج فيه تصوّر القارئ وخياله بالواقع، ليصبح واقعاً إبداعياً.

المصادر والمراجع:

1- مجلة العرب، فاروق يوسف، غادة السمان رائدة أدب الاعتراف في الثقافة العربية.
2- خطاب الحكاية، جيرار جينيت،تر: محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر الحلي، منشورات الاختلاف ، الجزائر، ٢٠٠٠ ص٤٩
3- الشخصية الروائية بين علي أحمد باكثير ونجيب الكيلاني دراسة موضوعية وفنية، نادر أحمد عبد الخالق ، ٢٠٠٩، ص٢٦.
4- رعشة الحرية ، غادة السمان ، منشورات غادة السمان، لبنان، ط١، ٢٠١٤، ص١٢٤.
5- امرأة على قوس قزح، غادة السمان، منشورات غادة السمان، لبنان، ط١، ٢٠١٤، ص١٠٣.
6- ينظر: الخلق الفني. بول فاليري، وزارة الثقافة، دار البعث، دمشق، ٢٠٠٤، ص٨٠.
7- امرأة على قوس قزح، غادة السمان ، ص١٠١.
8- فن الرواية. أحمد أبو سعد، دار الشرق الجديد، بيروت، ط١، ١٩٥٩م، ص٨٦.
9- ستأتي الصبية لتعاتبك بدايات زمن التمرد، غادة السمان، منشورات غادة السمان، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٩، ص٧٠.
10- ينظر: المرجع نفسه، ص١٥١.
11- المرجع نفسه، ص٣٦.
12- البحر يحاكم السمكة ، غادة السمان، منشورات غادة السمان، بيروت، لبنان، ط1986،1، ص175.
13- امرأة على قوس قزح، غادة السمان ، ص143.
14- حكايات حب عابرة، غادة السمان ، منشورات غادة السمان، بيروت ، لبنان، ط1، 2011، ص10.
15- جكايات حب عابرة ، ص10.
16- الجسد حقيبة سفر ، ص382.
17- غربة تحت الصفر ، غادة السمان، منشورات غادة السمان ، بيروت ، لبنان، ط2، 1993، ص21.
18- أدوات النّص. محمد تحريشي، إتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م، ص١٣٧.
19- رعشة الحرية، غادة السمان ، ص114.
20- المرجع نفسه، ص٨.
21- فن كتابة الرواية ، فؤاد قنديل ، ص131.
22- الجسد حقيبة سفر ، ص44.
23- تحليل النص السردي ، ص96.
24- السرد الروائي في العصر الجاهلي ، ص 16